محاضرات في المناهج اللسانية

إعداد: محمد خاين
أستاذ التعليم العالي بجامعة أحمد زبانة، غليزان.

المحاضرة الأولى *
المنهج واللسانيات

1-توطئة:

مما لا يجب أن يغيب عن ذهن وبال الباحث والأستاذ قبل الطالب في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويعمل على ترسيخه وتكريسه معرفيا لدى متلقيه، أنه ثمة جهاز مصطلحي وشبكة مفاهيمية لا بد على الطالب أن يستوعبها، ويتحكم في توظيفها، منذ ولوجه الجامعة، وذلك بحكم كونها مفتاحية ومفصلية في أي منظومة معرفية يسعى إلى التعامل معها، فعليها يتأسس مساره الدراسي، ومشواره البحثي، مهما كان المسلك الذي يسلكه.

ومرد ذلك تعالق هذه المصطلحات وتداخلها، وتقاطعها معرفيا ووظيفيا. فإن نحن أردنا لأنفسنا التميز في مسارنا التعليمي والعلمي في حقل المعرفة الإنسانية بعامة، واللسانية بخاصة، فإنه يتحتم علينا تفادي الترديد الببغاوي لهذه المصطلحات، دون وعي بحمولتها المفاهيمية، وذلك تفاديا للوقوع فيما يطلق عليه رجال التربية فخ اللفظية(Le verbalisme) ، ويمكن لنا إجمال هذه الشبكة في: التخصص، المنهج، النظرية، المدرسة، التيار، الاتجاه، الدراسة، المقاربة، الفرضية، الإشكالية.

وسنعمل من خلال هذه المحاضرات الموسومة بـ"محاضرات في المناهج اللسانية" الوقوف عندها جميعا كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وإن كانت الغاية والمرمى استجلاء المنهج مفهوما وممارسة في الحقل اللساني، وللدلالة على هذه التقاطعات والتداخلات المعرفية، وموقعية المنهج بينها نحيل على قول منذر عياشي الذي يرى أن:" اللسانيات لم تتعدد مذهبا ونظرية ومدرسة إلا لأنها تعددت منهجا".

2-المنهج:

مما هو محل إجماع بين المشتغلين في حقل المعرفة الإنسانية والاجتماعية ألا علم إلا بمنهج(Méthode)إذ تستمد العلوم مصداقيتها من المناهج التي تعرِض بها مضمونها الفكري توصيفا وتحليلا، ومن ثمة كان البحث في المناهج قضية جوهرية في العلوم ؛ وبالتالي ووفق زاوية النظر هاته نلحظ أن حسن التوظيف لمنهج ما أو جملة مناهج ضمن دائرة معرفية ما، يكسب العلم صلابته النظرية، وتماسك مقولاته المعرفية، وهذا ما يوصل إلى تقنين الأنساق المنتجة لتلك المعرفة.

وما دام المنهج بهذه الأهمية، من حيث خطورة الدور الذي يؤديه، فقد نشأ تخصص يهتم به يعرف بعلم المناهج(Méthodologie) يتأسس على كونه:"الدرس الفلسفي للإجراءات الخاصة بالبرهان وبالبحث في مختلف العلوم". وقد تعددت تعريفات المنهج بتعدد المعرفين وتبعا لمشاربهم الفكرية ومرجعياتهم الأيديولوجية، وإن كانت جميعها تقريبا تتفق على أنه الطريق المؤدية إلى بلوغ الحقيقة. فمجموعة بور رويال(Port royale) مثلا ترى أنه:" فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما لأجل الكشف عن

الحقيقة ، حين نكون بها جاهلين ، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين" وكما هو جلي فهذا التعريف قائم على تحديد الغاية من توظيف المناهج في حال العلم بالحقيقة أو الجهل بها ، وذلك باتخاذ المنهج آليةً وواسطةً.

وذهب فريق ثان إلى أن المنهج يمثل طريقا توصل إلى الكشف عن الحقيقة داخل العلوم ، وذلك بوساطة استثمار جملة من القواعد العامة المسيطرة على سيرورة العقل والمحددة لعملياته إلى غاية الوصول إلى نتيجة معلومة. وهذا السير له سبيلان:

-إما أن يكون مرسوما بطريقة تأملية مقصودة ، وهو تلقائي.

-أو أن يكون نوعا من السير الطبيعي للعقل ؛ بمعنى أن أصوله غير محددة سلفا ، وهو عقلي تأملي ، وهو موضوع علم المنطق. ومن هنا نفهم أن:" الطرق التي يستطيع العقل بها بلوغ هذه المواضيع المختلفة ، مختلفة هي أيضا. وأن مجموع هذه الطرق هو ما يسمي بالمنهج ، أي الإجراءات التي نستخدمها لاكتشاف الحقيقة أو لإثباتها".

ومن الوارد أن يحمل مصطلح المنهج دلالة عامة ، فنكون بإزاء مثلا: منهج للتعلم ، وآخر للقراءة ، وثالث يتّخذ قصد الوصول إلى نتائج مادية ، ومثال ذلك الطب ، الذي يكثر فيه الحديث عن منهج وقائي من الجراثيم(Aseptique) ، ومنهج علاجي من الجراثيم(Antiseptique). وتُردّ المناهج المتبناة حاليا في شتى العلوم الإنسانية والتجريبية إلى الاستدلال العقلي أو إلى التجريب. وبذلك نكون بإزاء مناهج عقلية أو تجريبية ، ويتحدث أحرون عن مناهج الاسترداد الموظفة في التاريخ ، والتي تشتهر تحت مسمى المنهج التاريخي. وتفرض علينا هذه الوقفة قبل الغوص في تفاصيل تقسيمات المناهج التي تتعامل معها اللسانيات تقديم ملمح عن طبيعة كل فصيل من المناهج سالفة الذكر والمبادئ الكبرى التي تقوم عليها.

3-1- المناهج الاستدلالية الرياضية(العقلية):

تنطلق في اشتغالها بوصفه مجموعة آليات أو أدوات يتوصل بها إلى الحقيقة تحليلا ووصفا انطلاقا من المبدأ العام الناظم وصولا إلى القضايا التي تنتج عنه ضرورة ، من غير حاجة إلى اللجوء إلى التجربة ، قصد الإثبات والنفي وغير ذلك من المقولات والأحكام. وخير مثال موضح لذلك العلوم الرياضياتية.

3-2- المناهج التجريبية:

تتأسس على الملاحظة والتجربة ، ويتم البدء فيها بالجزئيات أو المبادئ غير اليقينية ، والسير منها إلى التعميم وصولا إلى قضايا عامة ، وتعتمد التجربة في كل خطوة ومرحلة ضمانا لصحة الاستنتاج. ومثال ذلك العلوم الطبيعية على وجه التخصيص.

3-3-المناهج الاسترادي(التاريخي):

ويعني استرجاع الماضي تبعا لما تركه من آثار ، ويوظف في بخاصة في حقل التاريخ وعلم الأخلاق.

3-4- المناهج الجدلية:

وتتأسس على التناظر والتحاور في المناقشات العلمية ، ويستعان فيها بالمناهج الثلاثة السابقة وإلا بقيت قاصرة عن الإفادة. وإن كانت استعانة المناهج بأدوات بعضها البعض استكمالا لمقوماتها وسدا للثغرات البادية عليها أثناء الممارسة البحثية طبيعة متأصلة فيها. وهو الأمر الذي ذهب إليه عبد الرحمن بدوي في قوله:" إن مناهج البحث وثيقة الارتباط باطنيا في تطبيقاتها العلمية ، إلى درجة أنه لا توجد مشكلة مركبة لا تشارك جميعا في حلها".

4- خلاصة:

ما يمكن الخلوص إليه بعد هذه الإطافة السريعة بين المناهج، هو أن المنهج من مقومات العلم، فلا حديث عن العلم خارج دائرة المنهج، وإلا انتقل حديثنا إلى معرفة تراكمية تفتقد إلى الجدوى والنجاعة في التعامل مع قضايا الإنسان وموضوعاته ومشكلاته وانشغالاته الإنسانية والمادية ؛ نتحدث في هذه الحالة عن غياب النسق. كما تتصف المناهج بطابعها التعددي والتكاملي، وما قد يساعدنا في:"كيف تعاملت معه(المنهج) اللسانيات بكل مذاهبها ونظرياتها ومدارسها، وكيف اتخذت منه سبيلا إلى معالجة قضاياها ومسائلها". وإن هذا التنوع والتعدد في المنهج مرده تملك المناهج القدرة على مقاربة العلوم المختلفة ؛ وبالتالي تغطيتها بكفاءة وموافَقة لطبيعتها التي لا تخرج عن كونها علوم مادة تعتمد المنهج التجريبي، وعلوم تجريدية تتخذ المنهج الاستدلالي سبيلا للبحث، وعلوم إنسانية تتراوح ما بين هاته وتلك من المناهج في مقاربة ظواهرها البحثية. وإن الحديث عن طرح منهجي للمعرفة يراد به بكل بساطة قياسها على خطاب علمي وهذا بغرض إثبات صحتها ومصداقيتها العلمية، وذلك انطلاقا من كون كل منهج بوصفه مجموعة أو نظام من القواعد يرتبط بمستويات معرفية مختلفة أهمها على الإطلاق النظرية التي يستند عليها.

---

*ملاحظة: لهذه المحاضرة هوامش وإحالات، واحترمت فيها الأمانة العلمية.